تحية الأزهر فى عيده

للأستاذ محمد محمد المدنى

« مرت بالأزهر فى هذا الأسبوع ذكرى فريدة ، لم يسجلها التاريخ لجامعة سواه : ألف عام من عمره المبارك فى اليوم السابع من هذا الشهر الكريم « رمضان سنة ١٣٦١هـ » ، وقد أثارت هذه الذكرى فى نفس الكاتب ألواناً من المعانى رأى أن يسجل بعضها فى هذا الكتاب ويجعله تحية العيد »

أيها الشيخ الوقور :

يرفع هذا الكتاب إلى مقامك العظيم — فى أدب واحترام ، وإكبار وإجلال — واحد من أبنائك أنعم الله عليه وأنعمت عليه ، إذ بسطت له جناحك غلاماً ، وتعهدته برعايتك ناشئاً ، ومددت له من ظلالك كهلاً ، فأنت مولاه ذو الطول عليه ، وهو غرسك وسقيك وثمرتك . يحبك ويحسب لفرط حبه أنه أبر الناس بك ، وأوفاهم لعهدك ، ويغار عليك فيحمّل نفسه ما حمّلته وما لم تحمله من أعبائك ، ويرى حقاً عليه أن يشاطرك — بروحه وقلبه وقلمه — أفراحك وأحزانك ، فيشيد بأيامك ، ويرثي لآلامك ، ويكافح عنك ، ويسهر الليالى ضَنِيًّا بك ، مفكراً فيك ، يود لو يمتد به العمر حتى يراك وقد عاد لك سابق مجدك ، واجتمع إليك ما تفرق من أمرك !

واليوم ، وهذه ذكرى من ذكرياتك المجيدة ، يقف هذا الابن البار بين يديك خاشعاً مطرقاً ، يغضى حياء من مهابتك ، وينحنى إجلالاً لماضيك ، ويزجى إليك التهنئة فخوراً بك ، ويحيى فيك مهد العلم ، ومهبط الحكمة ، ومنبت الأدب ، وحصن الدين واللغة ، ومطلع الكواكب اللامعة من سماء مصر ينبعث بها النور فى الشرق والغرب يفيد منه أصدقاؤك وأعداؤك ، ويهتدى به من آمن بك ومن صدّ عنك !

* * *

هذا عيدك الألق الفريد ، ذكرى لم تعرف مثلها الدنيا ، ولم يشهد مثلها الناس : ألف عام تقف من البشرية الحيرى موقف الرسل الهداة ، تحمل على الجهل وتبدد ظلامه ، وتنصر العلم وتحمى أعلامه

ألف عام تغالب الأهواء والنزعات ، وتختلف عليك الدول والنظم والسياسات ، ويبتسم لك الدهر حيناً ، ويعبس فى وجهك أحياناً ؛ ومرة تحتضن فأنت العزيز المقرب ، وأخرى تُضطهد فأنت الشريد المطَّرح ، ولكنك فى جميع أحوالك ثابت كالطود الشامخ ، تتكسر السهام حواليك ، وتتفرق الأعاصير على جانبيك

أنت تلقيت ميراث الإسلام يوم خلت الأرض كلها ممن يتلقى هذا الميراث الكريم . تلقيته فصنته ، وحفظت أمانته ، ورعيت حقه ، ووقفت دون العبث به والكيد له :

هذا كتاب الله بين يديك : تتلى آياته ، وتجوّد لهجاته ، وتروى قراءاته ، وتفسر معانيه ، وتستنبط أحكامه ، وتدرس أسراره !

وهذه هى السنة المطهرة قد أينعت بك ثماراً ، وتباركت آثاراً ، وزكت أصولاً وفروعاً !

وإليك صار علم المدينة ، وفقه العراق ، ونحو البصرة ، وأدب الكوفة ، وتصنيف بغداد ، وفن قرطبة ، وما كان من فلسفة المتفلسفة ، وكلام المتكلمة ، ونزعات المتصوفة !

وبك وقى الله المسلمين عوادى الفتن ، فلم تَرُج عندك شبهة ، ولم تدخل عليك نحلة ، ولم تخدع عن عقيدة ، ولم تستدرج إلى هوى ، ولم يطمع فيك من المبطلين طامع !

أنت حملت شعلة العلم عالية السناء ، وهاجة الضياء ، حين كان العالم فى أكثر بقاع الأرض سابحاً فى الأوهام

ألف عام ! يا له من ماض طويل ، فى جهاد نبيل ! فما لى إذن أراك وقد انفردت فى موقفك يوم عيدك الفريد ؟ أين مهرجانك ؟ أين مهنئوك ؟ أين الوفود تفد إليك من الشرق والغرب لتجعل على مفرقك التاج ؟ أين المستشرقون المستعربون ليضفروا لك أكاليل الغار ؟ أين كتابك ؟ أين شعراؤك ؟ بل أين « لجانك » التى ألفوها لهذا العيد تحضر له ، وتخط برنامجه ، وترتب نظامه ؟ أباقية هى ؟ فأين أعمالها ؟ أم حلت ؟ فمن ذا الذى أشار بحلها ؟ أم أدركها « داء اللجان » من قبلها ومن بعدها فقضى عليها فى مهدها ؟ !

أيها المعهد العتيق :

لقد ختمت بالأمس ألفاً ، وبدأت اليوم ألفاً ، ولكن ما أبعد الفرق بين أمسك ويومك :

كأنى أرى حلقاتك العلمية تحفها السكينة ، ويزينها الوقار ! عرفتها قبل أن تعرف أوربا نظام الدرجات الجامعية ، وأجريت فيها العقل على سجيته حراً كما خلقه الله ، نافذاً كما يجب أن يكون : يقول الشيخ ما يريد أن يقول ، ويناقش الطالب ما يرى أن يناقش ، وتجلّى الغوامض على هينة ، وتحل العقد فى صبر وتؤدة ، لا وقت لهم ، ولا شغل يشغلهم ، ولا رقيب عليهم إلا من ضمائرهم !

منك اليوم هذه المجالس العلمية الجادة ؟ لقد أبدلك الزمان منها فصولاً دراسية متفرقة على نظم مقلدة غرّ أولياءك ظاهرُها الجميل فاكتفوا به ، وتغافلوا عما وراءه ، ولو فتشوا عن العلم فى هذه الفصول المبعثرة لما وجدوا إلا ألفاظاً وكلمات تلاك ولا تستساغ ، وأطرافاً من أوائل الكتب ومقدمات العلوم تمس مساً رفيقاً فى كل عام !

كأنى أرى علماءك الأولين ، وقد عكفوا على المكتبة العربية يدرسون نوادرها ، ويقلبون صحفها ، ويكشفون عن أسرارها ، ويشتارون للناس جناها ، ويعتصرون من ثمارها وثمارهم شراباً صافياً سائغاً للشاربين ! فأين من هؤلاء علماؤك الحاضرون ، وقد ذكروا أنفسهم ونسوك ، واشتغلوا بشئونهم وتركوك ؟ أليسوا إلى اليوم عالة على كتبك التى ألفها سلفهم الناشط ، لولاها لضلوا فى البحث والدرس سواء السبيل ؟ بلى ، وإن أحدهم على ذلك لو ألف كتاباً أو نشر بحثاً لتجدنه يملأ الدنيا صياحاً ، وينفخ أوداجه كبراً ، ويحسب أنه أتى بما لم يأت به أحد من الأولين والآخرين !

ما أبعد الفرق — أيها المعهد العتيق — بين يومك وأمسك !

كان طلابك مُثلاً عُليا فى الجد والإقبال على العلم ، ينقطعون إليك ، ويؤثرونك على أوطانهم وأهليهم ، ويرتشفون من مناهل علمك ، ويغترفون من بحار فضلك ، تدفعهم الرغبة المخلصة ، وتغريهم اللذة العلمية ، وكانوا مثلاً عُليا فى الخلق والاستقامة وحسن الطاعة ، لا يشارون ولا يمارون ، ولا يصيحون ولا يصخبون ، ويخفضون رءوسهم لأساتذتهم متأدبين ، ويستمعون إلى رؤسائهم طائعين ، أما اليوم فقد جرأهم الأساتذة لحظهم الرؤساء ، وشغلتهم عن العلم المطالب والرغاب ، وأصبحوا لا يعملون إلا لاجتياز عقبة الامتحان : يُسألون فى ورقات معدودات دورين من لم يفز فى أولها كان فى الآخر من الفائزين !

أيها المعهد العتيق

لقد كان الشعب كله : أغنياؤه وفقراؤه ، حكامه ومحكوموه ، ريفه وحضره ، ينظرون إليك نظرة الإجلال والإكبار ، ويرفعونك إلى مرتبة التقديس ، ويمنحون أساتذتك ألقاب التكريم ، وأوصاف التعظيم : فهم « العلماء » من بين أهل العلم أجمعين ، وهم « أصحاب الفضيلة » من بين سائر الفاضلين ، وهم أعلام التقى ، ومثل الهدى ، وأهل الرأى ، وقادة الفكر ، وحماة الدين ، ورعاة الخلق ! وكان « رجل الدين » إذا أهل بطلعته على أهل حى عظموه وأجلّوه ، والتمسوا بركته ، ورجوا خيره . وكان إذا تكلم فى قوم أصغوا إلى ما يقول فى خشوع وخضوع : أمره الأمر ، وحكمه الحكم ، ورأيه فى المعضلات هو الرأى !

أما اليوم فأنت ورجالك على هامش الحياة :

أنت سليب حريب . نقصوا أطرافك وعدوا على اختصاصك ، واستباحوا حماك ، وأغروا بك المنافسين ، يمدونهم بالمال والمناصب ، ويؤيدونهم بالجاه والسلطان ، ويحاسبونك على النقير والقطمير ، بينما يكيلون لغيرك بالشمال وباليمين !

ورجالك ! وا لهف نفسى على رجالك ! لقد اجتواهم المجتمع ، وتنكرهم الناس ، وهانوا حتى على أنفسهم ، وفقدوا أو كادوا يفقدون مجدهم القديم ، وكأنى بهم الآن يقفون وراء الصفوف فى معترك هذه الحياة ، ينظرون بعيون كسيرة ، وقد وضعوا أيديهم على قلوبهم ، واحتبسوا أنفاسهم فى صدورهم ، خائفين وجلين لا يدرون متى تعصف العاصفة أو ترجف الراجفة !

أيها الأزهر :

بين ماضيك وحاضرك ! أحدهما يثير الفخر والإعجاب ، والآخر يثير الهم والاكتئاب ! وإنى مع ذلك أهنئك بالعيد ، ولا أحب لك أن تيأس « فإن مع العسر يسراً ؛ إن مع العسر يسراً » وإن الله الذى رفع لك ذكرك ، سيضع عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك . سلام عليك فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخرين !

ابنك البار

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة